غرام الكبار

منصور فهمي

فيلسوف الأديبة الساحرة

obeikan.com

obeikan.com

اختار صالون مي زيادة قِبلة وبيتاً ومنارة وملاذاً ..

واختارته مي فيلسوفاً وحيداً تزُبَّ به فتاوى الجميع وجعلته منبراً للتجديد والتأويل والتفسير الخلافي في قضايا الصالون الفلسفية .. فهل أصبح أيضاً فيلسوف قلب مي في زحمة كبار غرامها ؟!

إنه منصور فهمي .. فماذا تعرف عن هذا الفيلسوف الكبير ؟

...

منصور فهمي (١٨٨٦-١٩٥٩) هو أحد أساتذة الفلسفة في تاريخ مصر .

ولد منصور في إحدى قرى محافظة الدقهلية بمصر وتعلم في كتاب قريته وأتم دراسته الإبتدائية في مدينة المنصورة ثم انتقل بعد ذلك للقاهرة ليتحصل على شهادة البكالوريا من إحدى المدارس الفرنسية عام ١٩٠٦ ليلتحق بمدرسة الحقوق. وبعد عامين من الدراسة بها تم تأهيله مع عدد من زملائه للتدريس بالجامعة التي انشئت عام ١٩٠٨ ثم سافر إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من السوربون كانت أطروحته للحصول على درجة الدكتوراة لها صدى واسع وهي (أحوال المرأة في الإسلام) عام ١٩١٣ منع على إثرها من التدريس بالجامعة المصرية آنذاك بعد عمله بها لمدة عام

عاد للتدريس في الجامعة بعد ثورة ١٩١٩ و ذلك في العام ١٩٢٠ وقد تدرج في عمله الجامعي إلى أن كان عميدا لكلية الآداب جامعة القاهرة ثم أختير مديرا لدار الكتب ثم مديرا لجامعة الإسكندرية إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٤٦

كان عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ إنشائه و إنتخب كاتب سره و ظل بهذا المنصب حتى يوم وفاته

لم ينشر بالإضافة إلى أطروحته التي صدرت بالفرنسيّة في باريس إلا كتابا واحدًا

هو (أبحاث وخطرات) دار المعارف القاهرة ١٩٣٠ وهي فصول أدبية و فلسفية نشرها في الصحف ثم جمعها في هذا الكتاب .

أنتقد أطروحته بعد ذلك في عدد من المقالات نشرها ببعض الصحف والجرائد.

■ ■ ■

obeikan.com

معركة حول نبي الإسلام في القرن العشرين

كانت الجامعة المصرية قد عزمت على إيفاد بعثات إلى أوروبا ليعود الطلبة بعد إتمام دراستهم للتدريس بالجامعة المصرية وفاز منصور فهمي في مسابقة بعثة الفلسفة إلى جامعة باريس عام ١٩٠٨ لمدة خمس سنوات وتنوعت المعارف التي حصلها في باريس لكنه تخصص في الفلسفة وفروعها وخاصة علم الاجتماع وقد درس على يد أشهر علماء الاجتماع في ذلك الحين وهو «ليفي بريل» أحد أقطاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية في أوائل القرن العشرين.

وتقدم منصور فهمي لنيل إجازة الدكتوراه وكان موضوع رسالته «حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها» وقد نشر الكتاب للمرة الأولى في باريس عام ١٩١٣ ثم نشر في طبعة ثانية في باريس أيضا عام ٢٠٠٢ بعنوان «وضع المرأة في الإسلام» وهو كتاب صغير الحجم يقع في حوالي ١٤٠ صفحة من القطع الصغيرة وتسببت هذه الرسالة في معركة فكرية كبيرة في الأوساط المصرية كان من بين فصولها فصل منصور فهمي من الجامعة المصرية عدة سنوات نظرًا لما احتوته الرسالة من تطاول صريح على شخص النبي ﷺ.

المرأة.. والتقاليد:

وقد تناول المؤلف في تقديمه للكتاب الدافع وراء اختياره لموضوع رسالته والمنهج الذي التزم به والنتائج التي خلص إليها وكيف تأثر بجو حرية البحث العلمي في جامعة «السربون» فقال: إن غرابة أوضاع المرأة المسلمة صدمت الأوروبيين منذ وقت طويل عبر عنه نابليون عند بدء حملته على مصر بقوله: «إن الشعوب التي سنذهب إليها تعامل المرأة بشكل يختلف عن معاملتنا لها».

كان موضوع المرأة وأحوالها في نظر منصور فهمي ذا أهمية خاصة باعتباره أحد هموم البلدان الإسلامية وكان يرى ضرورة إصلاح تقاليد وأعراف هذه المجتمعات وأكد أن دراسته أثبتت أن عزل المرأة لم يكن السبب وراءه دينيًّا فقط ولكن أيضا كان نتيجة التميز الطبقي داخل المجتمع ولذلك استدعى الأمر منه بحث جوانب العقيدة والشريعة والأعراف والتقاليد التي اجتمعت وامتزجت معًا فيما يتعلق بموضوع دراسته كما استدعى تناول علاقات الرسول -صلى الله عليه وسلم- بزوجاته باعتبار الرسول نموذجًا يحتذي بسننه وبسلوكه المسلمون.

وأعرب منصور فهمي في رسالته عن سعادته بما تأثَّرَ به من حرية البحث العلمي في السربون وأشار أنه ولد مسلمًا وقضى شبابه في بلد مسلم ثم جاء إلى باريس فاكتسب تحت إشراف أستاذه «ليفي بريل» مناهج البحث الأكاديمي فقام بدراسته وليس أمامه من هدف غير الوصول إلى الحقيقة وهو يدرك أن هذه الروح النقدية ستعرضه -كما قال- لمؤاخذة من جانب أولئك المسلمين الذي يضفون على التقاليد قداسة واحترامًا دينيًّا وقال: «ولكن أردنا أن نكون جادين في بحثنا بالرغم مما قد يسببه ذلك من جرح لمشاعر من هم أعزاء لدينا».

وذهب منصور فهمي أن دراسة الوثائق التاريخية انتهت به إلى وجود روابط بين ظاهرة عزل المرأة وتحجبها وبين ظاهرة العبودية في المجتمعات الإسلامية وأن العزل والاحتجاب كان يهدف أساسًا إلى التميز بين الحرة والأمَة وهو ما جعل الإماء أحظى عند الرجال من الحرائر لأن الزوج قبل أن يملك الأمَة يكون قد تأمل كل شيء فيها وعرفه على عكس الحال مع الحرة.

منصور يتطاول على الرسول :

وتضمن الكتاب عبارات لا تتفق مع احترام الدين الإسلامي وتجرح بقسوة

مشاعر المسلمين من ذلك أنه كان يذكر اسم النبي الكريم مجردا من صفة النبوة أو صيغة السلام بل كان يذكر اسم «محمد» فقط كما كان انتقائيًّا فيما استشهد به من وقائع وردت في كتب التراث والسيرة خصوصًا في الفصل الخاص بعلاقة الرسول ﷺ بزوجاته وكانت عباراته فيها جرأة وتطاوُل على شخص الرسول الكريم وعلاقاته بزوجاته خاصة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومن ذلك قوله: «محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه -مع أنه- يعني محمدا- كان المشرع الذي ينبغي عليه أن يخضع لما يدعو إلى تطبيقه على الآخرين إلا أنه كان له ضعفه واختص نفسه ببعض المزايا».

ومن ذلك أيضا قوله: «وهكذا نجد أنه -يعني محمدًا- بعد أن ينام نومًا عميقًا يقوم ليؤدي صلواته دون أن يجدد طهوره ووضوءه على حين أن المؤمنين الآخرين كان عليهم الشروع في وضوء وطهور جديد ومن أجل أنه يبرر الاستثناء الذي عمل لصالحه اكتفى بأن قال: إن عيني تنام ولا ينام قلبي أبدًا».

ومن ذلك أيضا قوله: «لقد حد النبي من نظام تعدد الزوجات إلا أنه تعدى بالنسبة إلى نفسه ما وضعه عن حدود الآخرين فمع أن بقية المؤمنين لم يكن بمقدورهم أن يتزوجوا بأكثر من أربع نساء فإن محمدًا أجاز لنفسه بأكثر من ذلك هذا كما استلزم لشرعية الزواج دفع مهر ووجود شهود إلا أنه في زواجه أعفى نفسه من المهر والشهود».

ولقد سعت إدارة الجامعة التي أوفدته جاهدة إلى منع تقديم رسالته حيث رأت فيها أنه جرى على قلمه عبارات تتنافى واحترام التقاليد الدينية ولكن مناقشة الرسالة جرت في موعدها ونال منصور فهمي الدكتوراه وعاد إلى القاهرة في شهر يونيو ١٩١٣ فالتحق بهيئة التدريس بالجامعة طبقًا لتعاقده مع الجامعة قبل إيفاده

للبعثة ومر الأمر بهدوء ولكن عندما بدأ يمارس التدريس مع بداية العام الدراسي تنبه البعض إلى وجوده وأثاروا الموضوع من جديد فاضطر مجلس الجامعة إلى فصله في ديسمبر ١٩١٣.

هل هذا صحيح ؟

نشرت صحيفة «المؤيد» كلمة بتاريخ ٢٠ يناير ١٩١٤ تحت عنوان «هل هذا صحيح؟» تساءلت فيها عن حقيقة ما جاء في رسالة منصور وطلبت من رجال الدين أن يعملوا على إيقاف تيار الإلحاد حتى لا تفسد عقول الناشئة.

وكتب محمد لطفي جمعة مقالاً طويلاً نشرته المؤيد في ٢٨ يناير سنة ١٩١٤ وفيه رد قوي على مزاعم منصور فهمي الذي اعتمد على الأحاديث الموضوعة والضعيفة بل ولم يشأ أن يفهمها على وجهها الصحيح و«فهمها على وجه الخطأ لأغراض قبيحة انطوت عليها نفسه الخبيثة» وبين لطفي جمعة الحكمة في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من أربع والظروف التي أحاطت بكل زواج وما ترتب على ذلك من فوائد سياسية واجتماعية عززت مكانة الإسلام ووطدت أركانه في شبه الجزيرة.

وذكر لطفي جمعة أن حياة النبي عليه الصلاة والسلام من يوم مولده إلى أن بعث وهو في الأربعين من عمره كانت حياة طهر وعفاف وصلاح واستقامة ولو أنه كان شهوانيًّا مفرطًا في حب النساء لاقتنى أكثر من امرأة وبخاصة أنه كان شابًا ولم توجد أمامه عقبة تحول بينه وبين التمتع بالنساء أما أنه قد تزوج بأكثر من امرأة وهو بعد الأربعين وبعد أن شُغل بنشر الرسالة وحمل أعباء الجهاد واستشهد جمعة في مقاله بأقوال المنصفين من كتاب غربيين وكلها في مدح النبي عليه السلام والثناء عليه والإشادة بطهره وعفافه واستقامته ونزاهته ثم تناول الأحاديث التي اعتمد عليها منصور فهمي وبين أنها موضوعة أو ضعيفة.

وقد نشرت المؤيد مقالاً آخر بعنوان «حملة مدبرة ضد محمد صلى الله عليه وسلم» بتاريخ أول مارس سنة ١٩١٤ فيه تفنيد لمزاعم منصور فهمي وقد فرض كاتب المقال أن منصور ينكر الإسلام فقط وعلى هذا الفرض ذكر الكاتب أن التوراة لم تحدد عدد الزوجات للرجل وأن نبي الله يعقوب وداود -عليهما السلام- تزوجا بأكثر من امرأة كما أن التوراة تنسب إلى بعض الأنبياء ارتكاب المعاصي والخطايا ومع ذلك فلم يطعن أحد في نبوتهم أما منصور فهمي فلم يخص النبي محمدا -صلى الله عليه وسلم- بالطعن دون غيره من الأنبياء؟

وقد بعث عبده البرقوقي رئيس جمعية الطلبة المصريين -وقتها- مقالين نشرا في صحيفة «الجريدة» في فبراير سنة ١٩١٤ دافع فيهما عن حرية الرأي وأشار بوجوب اتباع آداب النقد والمناظرة وقال: إن الإنسان حر في فكره ما دام بعيدًا عن إلحاق الأذى بالآخرين.

المراجعة للأفكار:

ولما نشرت الصحف ما نشرت عن منصور فهمي اضطر إلى الاختفاء من المجتمعات لأن بعضًا من أفراد الشعب وبخاصة الأطفال كانوا يجرون خلفه متهمين إياه بالكفر ولذا غادر القاهرة وانزوى في قريته شرنقاش بالدقهلية وقضى فيها عدة سنوات أحس خلالها بشعور المطرود المنبوذ من مجتمعه.

ولا شك أن تجربة منصور فهمي مع الجامعة كانت نقطة فاصلة في حياته حولت نقده الجريء إلى حذر وحيطة وحولت ثقته بالناس إلى شك وريبة يقول عنه محمود تيمور في هذا الصدد: «وليس عجيبًا أن ترى منصور فهمي بعد أن عرك الحياة في حقائقها الواقعة قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشاطاته بصبغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات اختط لنفسه خطة واضحة في

توجيه الحركة الفكرية خطة تأبى الثورة والانتفاضة وتؤثر الهوادة والرفق في ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال وتوصي بالتبصر في ترك ما تترك من القديم وفي قبول ما تأخذ من الجديد».

ولقد كان الكتاب الوحيد الذي ألفه منصور فهمي «خطرات نفس» انعكاسًا مريرًا لهذه التجربة فقد كانت كل خاطرة تعكس بعمق ما تعرض له من اضطهاد وحرمان وبؤس نتيجة لمسلك الجامعة التي فصلته من عمله لتطاوله على الإسلام ونبيه الكريم وإذا راجعنا مقالات منصور فهمي في جريدة «السفور» نجده ما إن يأخذ الطريق إلى التجديد والأفكار الحديثة حتى يعود في المقال ذاته إلى الطريق المضاد ويزاوج بطريقة تلفيقية بين الأفكار المتناقضة والحذرة من الوقوع في براثن المؤاخذة والنقد ولقد عبر في أحد خواطره عن صراعه الهائل بين ما ينطوي عليه من رؤى وأفكار وبين المحيط الاجتماعي بالقول: «إن منشأ همي يا سيدي هو التنازع بين ما تحن إليه نفسي ونزعاتها وبين المبادئ التي يقوم عليها المحيط الذي يضمني».

ولكن الملف للنظر هو موقفه بعد ذلك من المرأة فمع أنه اختتم رسالته في فقرتها الأخيرة بقوله: «إنني لأنحني أمام ذكرى الكاتب المصري قاسم أمين الذي نذر نفسه كلية لقضية المرأة وتوفي قبل أن يسعد بجني ثمار عمله الذي سوف تقوده الحركة التقدم إلى النجاح في نهاية الأمر» لكنه في مقالاته وأحاديثه يرى أنه من الباطل والخديعة والتمويه أن تتساوى المرأة مع الرجل في كل شئون الحياة الاجتماعية وأعمالها وأنه من التملق إليها أن تهون لها الحقوق السياسية والتشريعية والحزبية فتساق إلى المطالبة بمراكز الحكم والنيابة.

ورأى منصور فهمي أن الخير للمرأة ألا تخرج من ميدان البيت وهو ما يزيد في بهجته وإشراقه ومن ميدان الأمومة وتربية الأولاد وتعهدهم بحسن التنشئة ومن

ميدان الزوجية والسهر على راحة الزوج وأمور الولادة والتمريض وما يتصل به مما تتفوق فيه المرأة على الرجل لاتصاله بطبيعتها وأنه إذا تغلب فوز المرأة بما تصانع من حقوق موهمة فذلك كتغلب الإظلام على الضياء.

وشعر منصور فهمي بما في هذا الموقف الجديد من تناقض مع موقفه السابق فيقول: «قد يرميني البعض بالتقهقر وبالرجعية المغالية وقد يبدو له فيما ذكرته ما يمثل ذهنية العصور الخوالي التي ذهبت بلا رجعة ولكن الباعث إلى كتابة ما كتبت لا يرجع إلى سوء تقدير للمرأة وإنما مرده الإيمان بالعائلة التي هي الركاز الأول وكل أمر يشغلها عن مركزها في العمارة إنما هو تفويت لما تنشده الإنسانية من خير وسلام وكل خروج بالمرأة إلى أعمال المجتمع هو محسوب ومطروح من حساب خصائص العائلة وتراحمها وتساكنها».

العودة للإسلام:

وقد ظل منصور فهمي مفصولا من الجامعة منذ ١٩١٤م وحتى ١٩٢٠ حين أعاده الملك فؤاد إلى مدرسة المعلمين العليا بعد أن قضى هذه السنوات بين التعطل والعمل بالفلاحة وكانت تجربته بدرجة من القسوة التي جعلته يقدم ما يشبه الاعتذار عما بدر منه ففي إحدى خواطره يقول: «اللهم لقد قطعنا من العمر مراحل فيها كبونا وزلت النفس وعثرت القدم فأعنا على أن نستفيد لبقية طريقنا من كبوة كبوناها فيما مضى وعثرة عثرناها فيما انقضى. اللهم لقد كتبنا بأعمالنا صحفا تشهد عندك علينا بما أحسنا وبما أسأنا فأعنا على أن تكتب في صحيفتنا الجديدة ما يزيد فيها الحسنات على السيئات».

ولما أعادته الجامعة مرة أخرى لتدريس الفلسفة بنظام المكافأة عام ١٩٢٠م ومر الأمر دون متاعب أو اعتراض أعارته الجامعة في العام التالي كعضو منتظم في هيئة

التدريس وتدرج في مناصبها من أستاذ مساعد إلى وكيل لكلية الآداب وعندما فصل الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب تم تعيين منصور فهمي خلفا له من ١٩٣٣م إلى ١٩٣٦م ثم عين مديرا لدار الكتب عام ١٩٣٦م ومرة أخرى يحل محل طه حسين كرئيس لجامعة الإسكندرية عام ١٩٤٥م بعد الاستغناء عن طه حسين عقب إقالة حكومة الوفد عام ١٩٤٤م.

وكان منصور فهمي عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤م وفي العام التالي أصبح أمين سر المجمع حتى وفاته عام ١٩٥٩م كما كان عضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد اعترف الدكتور منصور فهمي بتورطه في البحث دون استعداد فقد ذكر ذلك في مجلة (حياتك) الصادرة في ديسمبر ١٩٥٨م.

«كانت رسالتي في الدكتوراه عن المرأة في الإسلام فاندفعت أكتب بحرارة الشاب المندفع ويظهر أني انحرفت قليلا حيث كانت معلوماتي عن الإسلام طفيفة وحين قوبلت في مصر بضجة كبرى ازددت عنادا ثم كتب الله لي أن أجلس طويلا مع بعض مشايخ العلماء من ذوي الأفق الواسع والصدر الرحيب من أمثال الشيخ حسونة النووي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ على سرور الزنكلوني وهم الذين يمثلون رجل الدين الحقيقي في عقولهم وعلومهم فبدأت أخلص من الزيغ لأعود إلى حظيرة الدين والحمد لله».

وقد زاد على ذلك في موضع آخر نشر بمجلة لواء الإسلام شوال سنة ١٣٧٨هـ إذ تحدث بإعجاب عن لقائه بالشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر الأسبق فقال: «إنه أرشدني إلى قراءة القرآن وصحيح البخاري باهتمام وجدية فوعدته بذلك واستحييت ألا أفي بعهدي فعكفت على قراءة البخاري وعجبت لغفلتي الأولى إذ

وجدت حكما ونظما وأخذت أقارن ذلك بما درست من فلسفة وأن الإلهام الصادق يبدو من كل حديث فشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله».

كان اطمئنان منصور لما وصل إليه من حقائق الإسلام دافعا له أن يهدي الشباب الغافل إلى تعاليمه فانضم إلى جمعيات كثيرة منها جمعية الشبان المسلمين وجمعية مكارم الأخلاق وجمعية نشر الفضائل والإسلامية ليكون الخطيب البارز في ندواتها المتوالية.

وكان منصور فهمي يمتاز بين خطباء هذه الجمعيات وأكثرهم من علماء الأزهر باتجاه غير مألوف لأن دراسته الفلسفية قد أمدته بمقارنات كانت جديدة على الجمهور فجعلت لقوله مذاقا خاصا فهو مثلا يقول في الاحتفال بذكرى المولد النبوي بجمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠هـ.

«إذا صح لأهل الفلسفة والتاريخ عند ذكر سقراط أن يقولوا إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض يعنون بذلك أن وجهة العلم قد غيرها هذا الفيلسوف إذ كانت مقصورة على البحث في حقائق الهيئة والنجوم والأفلاك فحولها سقراط إلى البحث عن حقائق الإنسان ونفسيته ومسلكه كذلك يصح لمؤرخي الديانات أن يذكروا ذلك الحدث العظيم حين حول محمد بن عبد الله ﷺ معاملات الناس في الدنيا ومعايشهم الجارية فيها فرفعها من خفضها الأرضي ووجه مسامها الدنيوي وجهة عالية فجعل في شتى معاملات الناس بعضهم بعضا صلة بالتعبد والتقوى وجعل في شتى مساعيهم ومكاسبهم جوانب ترتبط بأمر الله حين يحب لعباده ابتغاء الأحسن فيما يعملون وبذلك رفع محمد صلى الله عليه وسلم أديم الأرض إلى وجه السماء».

وقد جعل من منابر قاعة يورت التذكارية والجمعية الجغرافية والمجمع العلمي المصري مجالا للحديث عن الإصلاح الاجتماعي موضحًا لتصحيح ما أخطأ فيه من قبل في رسالته عن المرأة.